تاريخ الأديان ومفهوم الهيمنة في الإسلام

*أ. د محمد خليفة حسن

يأتي مفهوم الهيمنة في الإسلام لكي يعبر تعبيرا إسلاميا واضحا ومباشرا عن وضع الإسلام في تاريخ الأديان من وجهة النظر الإسلامية. ويجب أن ننوه إلى أن مفهوم «الهيمنة» من المفاهيم التي لم تلق معالجة إسلامية كاملة فقد ندرت الدراسات الإسلامية لهذا المفهوم، كما أنه مفهوم مرفوض ومهمل في الدراسات الاستشراقية عن الإسلام، وكذلك في دراسات تاريخ الأديان التي تناولت الإسلام. وقبل الدخول في الحديث عن هذا المفهوم وأهميته في فهم طبيعة الإسلام وعلاقته بالأديان نؤكد على أن هذا المفهوم قرآني مستمد من الآية القرآنية الكريمة : {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾} (المائدة ٤٨-٥٠).

كما وردت في القرآن صفة الهيمنة في وصف الله سبحانه وتعالى بالمهيمن كإسم من اسماء الله الحسنى : {هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (سورة الحشر٢٣). ومعنى «المهيمن» الرقيب الحافظ لكل شيء (١).

* أستاذ الأديان والحضارات.

وقد دارت معاني الهيمنة عند المفسرين حول التصديق، والرقابة، والشهادة، والحفظ والائتمان. ففي تفسير الطبري ورد في شرح «ومهيمنا عليه» أي: أنزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه، ومهيمنا عليه، يقول أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد مصدقا للكتب قبله وشهيدا عليها أنها حق من عند الله. أمينا عليها حافظا لها، وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده قد هيمن فلان عليه فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن.. (٢) ويقول الطبري نقلا عن ابن جريح : القرآن أمين على الكتب فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتبهم بأمر إن كان في القرآن فصدقوا وإلا فكذبوا (٣) والقرآن أمين على كل كتاب قبله... ومهيمنا عليه يعني [أمينا عليه يحكم على ما كان قبله من الكتاب (٤)، وفسر بعضهم [المهيمن] بمعنى المصدق : [ومهيمنا عليه قال مصدقا عليه كل شيء أنزله الله من توراة أو إنجيل أو زبور فالقرآن مصدق على ذلك](٥) وقد حدد الفخر الرازى معنى الهيمنة بالرقابة والشهادة على الشيء والحفظ، والقرآن مهيمن على الكتاب: [لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخا البتة ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف وشهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق باقية أبدا فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبدا](٦).

ويضيف ابن كثير إلى هذه المعانى السابقة للهيمنة: [فهو {القرآن} أمين وشاهد وحكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، وأشملها وأعظمها وأكملها. حيث جمع فيه محاسن ما قبله. وزاده من الكمالات ما ليس في غيره. فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة](٧).

وهذه الصفات للهيمنة القرآنية على الكتب السابقة نترجمها في تاريخ الأديان إلى هيمنة الإسلام على الأديان التي سبقته فالقرآن الكريم هو الكتاب الإسلامي وبقية كتب الأديان تمثل أديانها كمصدر لها، وبالتالي فالهيمنة القرآنية هي هيمنة الإسلام على بقية أديان العالم بهدف العودة إلى الدين الواحد للبشرية دين التوحيد واعتباره مهيمنا على الأديان فما وافق الإسلام من هذه الأديان فهو حق. وما خالفه منها فهو باطل، وهذه الترجمة لمعنى الهيمنة القرآنية في مجال تاريخ الأديان ليست مقحمة على

الآية القرآنية التي ورد فيها ذكر هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة. فبقية الآية الكريمة والآيات التالية لها تؤكد على هيمنة الإسلام على الأديان، فهو دين الأنبياء السابقين وقد احتوى الإسلام تعاليمهم، وقوله تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهجا} هو إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد. (٨) وقوله تعالى {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة} فيه خطاب لجميع الأمم وأهل الأديان عن قدرة الله تعالى التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها. ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة، ثم نسخها أو بعثها برسالة الآخر الذي بعده (٩) حتى نسخ الجميع بالإسلام خاتم الأديان وبرسوله الرسول خاتم الأنبياء جميعا عليهم السلام، وهكذا تشير الآية الكريمة في مجموعها إلى هيمنة قرآنية على الكتب السابقة إلى هيمنة الإسلام على الأديان السابقة.

١. معنى الهيمنة القرآنية

يجب أن نشير أولا إلى أن مفهوم الهيمنة لا يعني نوعا من فرض السيادة الإسلامية على الأديان أو سيطرة للإسلام على الأديان. والحقيقة أن المفسرين على اختلاف اتجاهاتهم لم يفسروا الهيمنة بالسيادة أو السيطرة. فهذه المعاني بعيدة كلية عن القصد الإسلامي وهي لا تتفق ومبادىء الإسلام الخاصة بالتسامح مع الأديان الآخرى ولا مع مبدأ حرية الاعتقاد والعبادة في الإسلام. ولهذا تتفق مصادر التفسير القرآني الأساسية في عدم إيراد معاني السيادة والسيطرة الدينية ضمن معاني الهيمنة التى فسّروا بها الآية القرآنية الكريمة.

ومن مراجعة أهم مصادر التفسير اتضح أن معاني الهيمنة تدور حول التصديق، والرقابة، والشهادة، والحفظ، والائتمان. وهي كلها معانٍ إيجابية ولا تتضمن دلالات سلبية تجاه الكتب السابقة وقبولها فيما وافق الإسلام، ومخالفتها فيما خالف الإسلام. ولم يعرف تاريخ الأديان مثل هذا التصديق حتى في حالة الأديان التي ورثت الكتب السابقة عليها حيث أعادت تفسيرها وغيّرت من دلالتها، وحرّفت وبدّلت فيها، وعطلت من أحكامها الشيء الكثير أما « التصديق « القرآني للكتب السابقة فهو بمثابة اعتراف بها، وحث للمسلمين على أن يعملوا بها بما بقي إسلاميا منها، وترك ما انحرف على خط الإسلام منها باعتبار أن هذه الكتب السابقة نزلت على أنبياء ورسل مسلمين داخل إطار مفهوم الإسلام كدين للبشرية منذ بدايتها، وأن كل دعوات الأنبياء والرسل عليهم السلام دعوات إسلامية. أما الهيمنة بمعنى «الرقابة» فالقصد منها أن القرآن الكريم بكونه آخر الكتب الموحى بها، وبكونه رقيبا على الكتب الأخرى يحدد الصحيح فيها من غير الصحيح، وهو المعيار النقدي للتعرف على بقايا الوحي في الكتب السابقة وتحديد ما لا ينتسب إلى الوحي منها. والهيمنة بمعنى «الشهادة» تعني أن القرآن الكريم شاهد على أن الكتب السابقة حق من عند الله. فما اتفق من مادتها يثبت أصلها الإلهي ويشهد على أنها كتب منزلة من الله سبحانه وتعالى، وما لا يتفق مع القرآن الكريم فيها فهو الإنساني، والقرآن شاهد على إنسانيته بما يرد في هذه المادة الإنسانية من تناقض وخلط. والتناقض والاختلاف فيما هو دليل الوضع الإنساني لأن التناقض

والاختلاف لا يمكن أن يكون من عند الله سبحانه تعالى. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المنهج النقدي بقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا} (النساء ٨٢) .

اما الهيمنة بمعنى «الحفظ» فالقرآن الكريم أحاط بالكتب السابقة، وعرّف بها في شكلها الإلهي الصحيح من خلال ما ورد في القرآن الكريم من أخبار عن الديانات السابقة ومن نقد ديني وأخلاقي لما وقع فيه أهل الكتب السابقة من تغييرات أصابت الدين والأخلاق. فوضّح القرآن الكريم الصحيح الذي أتى به الأنبياء والرسل السابقون عليهم السلام، وبيّن الزيف الذي وقع فيه أقوامهم، والتغيير الذي أجروه على الاعتقاد الصحيح. وقد حافظ القرآن الكريم على المعتقدات الدينية الصحيحة للأديان السابقة بعد أن ضيّع الإنسان النصوص المقدسة التي وصلته عن طريق الأنبياء والرسل فحفظت بذلك المعتقدات على مستوى المعنى بعد أن ضاعت على مستوى النّص.

والهيمنة بمعنى «الائتمان» تعني أن القرآن الكريم أمين على الكتب السابقة ومؤتمن عليها من الضياع بها ورد فيه بما يدل عليها، ويؤكد صحتها، ويثبت وجودها ونزولها، وكأن هذه الكتب السابقة أمانة في عنق القرآن الكريم أدَّاها القرآن الكريم إلى أصحابها بعد نزول القرآن الكريم وفيه الكثير من صحيح هذه الكتب والأديان، وليكون في نفس الوقت الفرقان الفاصل بين الحق والباطل فيها، بل إن الأمانة القرآنية هنا تتسع لتعرف أهل الكتب السابقة ليس بالصحيح فقط ولكن بالباطل أيضا الذي تسرّب إلى كتبهم مع الزمن وقبل تثبيت نصوصها، وإن لم يمنع تثبيت النصوص من إجراء التغيير في المعنى من خلال التفسير بعد أن صعب التغيير اللفظي.

وهكذا جمع مفهوم الهيمنة القرآنية على الكتب السابقة جميع العناصر الإيجابية في حق الكتب السابقة وأديانها مدللا على وجودها ونزولها من عند الله سبحانه وتعالى، ومصدرها الإلهي. وقد كان القرآن الكريم الرقيب عليها، الحافظ لها، الدال على الصحيح فيها، المبين للباطل فيها، والحاكم عليها والمؤتمن الأمين على مضامينها. ويلاحظ أن كل هذه المعاني للهيمنة لا تحتوي على أية مفاهيم تخص السيطرة الدينية، أو فرض السيادة على الكتب السابقة أو أديانها. فالإسلام في تاريخه لم يمنع أهل

الكتاب من استخدام كتبهم والعودة إليها، ولم يجبرهم على قبول القرآن الكريم كبديل لها أو الدخول في الإسلام عن غير اقتناع به. ولو حدث هذا لكانت هذه هي الهيمنة في معنى السيادة والسيطرة.

ولكي يتضح مفهوم الهيمنة القرآنية على الكتب الأخرى نضيف إلى المعاني السابقة الواردة في كتب التفسير عند المسلمين بعض المعاني الأخرى الموضحة لهذا المفهوم. والمعنى الأول الذي نراه معبرا عن الهيمنة هو الاحتواء. فالقرآن الكريم احتوى الكتب السابقة، أي عبّر عن كل اعتقاداتها ومفاهيمها الصحيحة الأصلية. والحقيقة أن الاحتواء كامن أصلا في كون الإسلام دين البشرية منذ بدايتها، وفي كون الكتب السابقة محتواة داخل الإسلام، وكون رسالات الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام محتواة كذلك داخل الإسلام. فالإسلام كدين واحد للبشرية منذ بدايتها إلى نهايتها أصبح يحتوي كل الرسالات السابقة، والقرآن الكريم يحتوي كل الكتب المنزلة السابقة. هذا الاحتواء هو الذي أعطى الهيمنة دلالتها السابقة مثل التصديق والرقابة والشهادة والحفظ والائتمان. والاحتواء لم يتوقف عند حدود استيعاب الصحيح وحفظه بل احتوى أيضا التغيير الذي طرأ على الصحيح، وعبّر عنه القرآن الكريم من خلال النقد الديني والأخلاقي، فالصحيح يعرض عرضا مستقلا عن غير الصحيح، كما يعرض أحيانا في مقابل غير الصحيح حتى يتضع الصحيح وغير الصحيح معا. ونضرب مثالا على ذلك بقوله تعالى: {وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ} (النساء ١٧١). فهذا الجزء من الآية يحتوي على الأصل والتغيير الذي طرأ على الأصل ويشير إلى الصحيح في مقابل غير الصحيح. وكذلك في قوله تعالى: {وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ} (المائدة ٦٤). وهكذا تحتوي الآية على توضيح الخطأ والصواب والباطل والصحيح.

ويمكن فهم الهيمنة بمعنى الاحتواء في ضوء عالمية الإسلام والقرآن وخصوصية الأديان وكتبها. فالعالمية على مستوى الدين والكتاب تعني الاحتواء على كل الصحيح الذي ورد في الأديان السابقة وفي الكتب المنزلة السابقة، والإضافة إلى هذا الصحيح ما يحقق الكمال الديني ويجعل من الإسلام كمال الدين، ومن القرآن الكريم الكتاب الحق الكامل. وخصوصية الأديان السابقة وكتبها تحتم عدم

اكتمالها ونقصانها. فهي تحتوي على رسائل محدودة في الزمان والمكان، وتعالج أوضاعا دينية الأقوام بعينهم. وقد دخل مجموع هذه الرسائل المحدودة في الإسلام لأنها جميعا دعوات للإسلام في تاريخ الأنبياء عليهم السلام اكتملت واجتمعت كلها في رسالة الإسلام الأخيرة.

ومن معاني الهيمنة أيضا الإحاطة بما ورد في الكتب السابقة وفي الدعوات السابقة. والإحاطة صفة يتصف بها القرآن الكريم الذي لم يترك أمرا يخص الأديان السابقة إلا وأحاط به وأخبر عنه في صورة مجملة لأن القرآن الكريم ليس كتابا في تاريخ الأديان يصفها وصفا تفصيليا، إنما هو يقدم نقدا عاما للأديان ورؤية إسلامية للصحيح منها والفاسد فيها. ويستخلص من تاريخ الأديان المواعظ والعبر والدروس الدينية. والإحاطة صفة أساسية في القرآن الكريم استنادا إلى قوله تعالى {مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ} (الانعام ٣٨). ومع عمومية هذه الصفة وانطباقها على كل شيء فإن تخصيصها في مجال تاريخ الأديان أولى. فالقرآن الكريم، والإسلام بالتالي، أحاطا إحاطة كاملة وافية بكل الفكر الديني السابق على ظهور الإسلام. وهو صفة ينفرد بها القرآن الكريم بين كل الكتب المقدسة للأديان. فهو يستعرض في شكل إجمالي وموجز التاريخ الديني للبشرية ناقدا لهذا التاريخ وموضحا لصحيحه من فاسده مقدما الإسلام كدين أساسي وأصلي للبشرية، ومناديا بالعودة إلى الوحيد الصحيح في أبسط صوره ومعانيه مع الابتعاد عن التعقيدات اللاهوتية التي أضرت بالتوحيد، وضيعت نقاءه وبساطته.

ومن معاني الهيمنة المهمة أيضا الكفاية، فهمينة القرآن الكريم على الكتب السابقة تشير أيضا إلى كفاية ما ورد في القرآن الكريم، وإمكانية الاستغناء عن كل ما سبق أن ورد في الكتب السابقة. فقد احتواها القرآن الكريم وأعطاها في صورة صحيحة كاملة تعوّض النقص السابق، وتبتعد عن الخلط واللبس الذين وقعا فيما سبق من الكتب. وكذلك الإسلام أيضا كدين فيه الكفاية من إشباع الحاجة الدينية الروحية للإنسان بما يحتويه من عقيدة صحيحة، ومفاهيم دينية، وأحكام وتشريعات، وشعائر وعبادات، وأخلاقيات ومبادىء، وقيم دينية، فالاحتواء والإحاطة بكل شيء في أمور الدين جعلا من الإسلام الدين الكامل الكافي للعباد.

ويأتي مفهوم النسخ ليؤكد على كفاية القرآن الكريم والإسلام للبشرية. فالقرآن الكريم باحتوائه وإحاطته لكل شيء نسخ كل الكتب السابقة عليه حيث اشتمل على أصولها وعلى الصالح فيها، وقدمها في شكلها الصحيح السليم. والإسلام أيضا نسخ الديانات السابقة باحتوائه وإحاطته لكل ما يلزم الإنسان من الناحية الدينية وعلى الوجه الأكمل والأصح والأسلم. ورغم هذا الاعتقاد في النسخ فإن الإسلام لم يتدخل لإجبار البشر على التخلي عن كتبهم وعقائدهم إنما قدّم إليهم المعرفة الإسلامية بكتبهم وعقائدهم، وضح لهم نقد الإسلام لها، وموقفه منها، وتركهم لعقولهم يختارون بين الصحيح والخاطئ وبين الكامل والناقص دون قهر أو تعسف، وعلى أساس من التسامح الديني وحرية الاعتقاد، وعلى أساس من الاقتناع العقلي الخالص : {إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ} (البقرة ٢٧٢). وكذلك قوله تعالى {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ } (البقرة ٢٧٢).

ولعل من أهم معاني الهيمنة كذلك أن القرآن الكريم الجامع المانع لكل ما ورد في الكتب السابقة. فقد جمع الصحيح ونصّ على ما يوافق الإسلام وما ينتمي إلى التوحيد الصحيح فيها كما منع القرآن الكريم الفاسد في الكتب السابقة وذلك بتوضيحه والتصريح به ونقده والحض على تركه، فأصبح جامعا للحق مانعا للباطل {وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا} (الإسراء ٨١). وهو الجامع للعقيدة الصحيحة والأحكام والتشريعات والعبادات الحقيقية، والمانع لكل ما يفسد العقيدة. لذلك كان القرآن والإسلام كافيين للبشرية على مستوى الكتب وعلى مستوى الأديان بهذه الشمولية الجامعة المانعة.

هكذا اجتمعت في القرآن الكريم وفي الإسلام كل المواصفات المؤدية إلى الهيمنة الدينية دون فرض سيطرة، أو ممارسة سيادة. فقد اجتمعت فيه صفات التصديق والرقابة والشهادة والحفظ والائتمان كذلك صفات الاحتواء، والإحاطة، والكفاية، والشمولية، والجمع والمنع والنسخ.

ويجب أن نشير هنا إلى أن مؤرخي الأديان والمستشرقين الدارسين للإسلام لم يفهموا معنى الهيمنة بل إنهم أسقطوها من حساباتهم رغم أن الموضوعية الدينية تستدعي إبراز رؤية الدين لنفسه وتحديده

لموقفه من الأديان الأخرى. وقد بسّط مؤرخو الأديان والمستشرقون المعالجة لعلاقة الإسلام ببقية الأديان، وبخاصة علاقته بالأديان التوحيدية السابقة عليه، تبسيطا شديدا لا يتناسب مع مكانة الإسلام في تاريخ الأديان. فقد فهموا الإحاطة والاحتواء على أنها تشير إلى تأثر إسلامي بالأديان السابقة عليه، وأن الاحتواء ما هو إلا أخذ عن الأديان الأخرى وعن الكتب السابقة بالنسبة للقرآن الكريم. لذلك انشغلوا بموضوع التأثر، وحاولوا رد الإسلام إلى مصادر يهودية ومسيحية وعربية قديمة، ورد القرآن الكريم إلى مصادر توراتية وتلمودية وإنجيلية مستندين استنادا حرفيا إلى قاعدة التشابه. فكلما وجدوا شيئا قرآنيا أو إسلاميا له مشابه في اليهودية أو المسيحية أو غيرهما اعتبروا الإسلام متأثرا وناقلا من الأديان الأقدم والكتب الأسبق. هذا هو بطبيعة الحال الطريق السهل البسيط أمام مؤرخ الأديان والمستشرق الذي يتجاهل طبيعة الإسلام وعلاقته الحقيقية بالأديان السابقة عليه عن عمد، ويتمسك بنظرية التأثير والتأثر وهي من أهم معالم منهج النقد التاريخي المعتمد في تاريخ الاستشراق الحديث وفي تاريخ الأديان. فالتشابه يعني التأثر ومنطقيا التأثر يحدث من الدين السابق على الدين اللاحق.

وليس هنا مجال الرد على الاستشراق وتاريخ الأديان فيما يتعلق بنظرية التأثير والتأثر والتطبيق الحرفي لها في مجال الإسلام وعلاقته بالأديان السابقة عليه. ونقول اختصارا إن الإسلام لا يعتبر نفسه دينا جديدا وهو الدين الوحيد الذي يقدم نظرية كاملة في أصل الدين تقوم على كون التوحيد هو الأصل والأقدم في تاريخ الأديان، وتقوم على أن الإسلام دين البشرية منذ آدم عليه السلام. وداخل إطار شمولية الإسلام بتاريخ البشرية ظهرت الرسالات والأديان المختلفة وهي تقترب أو تبتعد عن التوحيد وعن جوهر الدين الذي تعبر عنه كلمة «إسلام» بمعنى الطاعة واستسلام إرادة المخلوق لإرادة الإله الواحد الخالق. وداخل تاريخ الإسلام منذ آدم عليه السلام وإلى ظهور الإسلام في التاريخ لا يوجد تأثير أو تأثر أو أخذ فنحن نتعامل مع دين واحد، يتغير ويتبدل بفعل البشر مع الزمن، فيبتعد أو يقترب من أصوله الأولى على مستوى التوحيد والإسلام بمعنى الطاعة السابقة

الذكر. وتمثل اليهودية والمسيحية مرحلتين سابقتين في تاريخ الإسلام مع الأخذ في الاعتبار أن هذه المسميات مرفوضة لعدم تعبيرها عن حقيقة التوحيد والطاعة. وهاتان المرحلتان في تاريخ الإسلام تحقق فيهما بعد وقرب نسبي من التوحيد والإسلام. وقد سبقتهما مراحل أنقى وأخلص على مستوى التوحيد والطاعة لعل أبرزها مرحلة دين إبراهيم عليه السلام والتي مع ظهور الإسلام في التاريخ عاد إليها كقاعدة دينية صحيحة للتوحيد والطاعة فتجاوز اليهودية والمسيحية لتجاوزهما على التوحيد والطاعة، وتمسك بدين إبراهيم عليه السلام كدين معبّر عن الفطرة الدينية السليمة، والعقل الديني السليم من خلال الالتزام بتوحيد ديني بسيط فطري نقي وخالص وبرىء، والالتزام بطاعة فطرية تلقائية بسيطة خالصة وطاهرة. وكان الأولى بالمستشرقين و مؤرخي الأديان أن يشغلوا أنفسهم بالانحراف الذي وقعت فيه اليهودية والمسيحية بالنسبة لدين إبراهيم عليه السلام وهو الدين الأصل لهما في التاريخ. وقد أهملت اليهودية والمسيحية دين إبراهيم عليه السلام وخرجتا عليه وطورتا شكلا للتوحيد والطاعة لا تمتان بصلة إلى الأصل الإبراهيمي. والدور الذي قام به الإسلام هو حفظ دين إبراهيم عليه السلام، والعودة إليه، ورفض كل التجاوزات اليهودية والمسيحية في حق دين إبراهيم عليه السلام. وبدون الدخول في تفاصيل هذه القضية نتساءل كيف يتأثر الإسلام بديانتين من أكثر الديانات التي نقدها الإسلام ووضح ما فيهما من تحريف في العقائد؟ وكيف يأخذ الإسلام مما يقر بتجاوزه وخروجه على التوحيد الصحيح والطاعة الصحيحة؟ هناك بالتأكيد تناقض واضح في دعاوى المستشرقين ومؤرخي الأديان وخروج على الموضوعية العلمية. والحقيقة المطلوبة من المستشرق الموضوعي ومن مؤرخ الأديان الموضوعي أن يفهم نظرية الهيمنة كما شرحناها حتى يعرف العلاقة الحقيقية بين الإسلام والديانتين السابقتين عليه. فالإسلام احتوى الصحيح في هاتين الديانتين، وفنّد غير الصحيح، ومنع المسلمين من الوقوع فيه، وأتى الإسلام جامعا مانعا شاملا وكافيا بحيث أنه أصبح في غير حاجة دينية إلى اليهودية والمسيحية. ويعطينا تاريخ الأديان أصدق الأدلة على عدم اعتماد الإسلام على اليهودية والمسيحية من خلال مقارنة بسيطة بينه وبينهما ليتضح أن الخلاف العقدي بين الإسلام وبين اليهودية المسيحية خلاف لا يمكن تجاوزه أو التقريب فيه بينهما لأنه خلاف جوهري. فهل تأثر الإسلام بالمسيحية في تأليهها لعيسى عليه السلام؟ هل أخذ عنها عقيدة

التثليث؟ هل استمد منها عقيدة المسيح المخلص؟ هل أخذ منها مفهوم أصالة الخطيئة الإنسانية؟ هل آمن الإسلام بصلب المسيح عليه السلام؟ الإجابة التي لا ينكرها المستشرق ومؤرخ الأديان هي بالنفي... والسؤال ماذا تبقى في المسيحية لكي يأخذه الإسلام؟ وكذلك الوضع بالنسبة لليهودية. هل أخذ منها مفهومها العرقي للاختيار الإلهي لبني إسرائيل؟ هل أخذ منها عهودها العنصرية مع إلهها؟ هل أخذ منها اعتقادها في المسيح المخلص الذي لم يأت بعد؟ والإجابة بالنفي. ولا نعلم ماذا يتبقى من اليهودية والمسيحية لكي يتأثر به الإسلام. وهذه كلها تساؤلات منطقية وموضوعية حول موضوع التأثر في تاريخ الأديان.

٢. أدلة هيمنة القرآن والإسلام في تاريخ الأديان

يشهد تاريخ الأديان على صحة الهيمنة القرآنية والإسلامية على الكتب السابقة ويعطى أدلة دامغة على هذا. ومن هذه الأدلة:

أ. حدوث تأثير إسلامي في معظم الأديان التي عرفها تاريخ الأديان. وهذا التأثير ناتج عن تفاعل الأديان الأخرى مع النزعة النقدية التصحيحية التي تبناها الإسلام للدلالة على هيمنة من ناحية ولتصحيح الأوضاع الدينية للبشرية من ناحية أخرى. وقد نتج هذا التفاعل مع الإسلام عن تمسك الإسلام بمبدأ التسامح الديني وحرية الاعتقاد، وقبول التعددية الدينية. والحقيقة أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تعاملت معه الأديان تعاملا مباشرا وذلك بظهوره وانتشاره في قلب العلم القديم وانطلاقه من هذا القلب إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب، واحتكاكه بكل الشعوب وكل الأديان، وهو أمر لم يتحقق لدين آخر بما في ذلك المسيحية ذاتها. وقد أدركت الشعوب والأديان أنها لم تفقد حريتها الدينية، ولم تفقد استقلالها الديني حيث ظلت أديانها تعيش إلى جانب الإسلام وفي ظل حمايته الدينية. ولا يوجد دين في العالم وفَّر الحماية والرعاية للأديان الأخرى كما فعل الإسلام. وفي نفس الوقت لم يتوقف الإسلام عن التمسك بدور الرقيب والأمين والحافظ للأديان الآخرى وهي من ملامح الهيمنة المذكورة سابقا. فهو يصحح وينتقد الأوضاع الدينية للشعوب بدون تدخل، ويترك الفرصة للعقل لكي يلعب دوره في تحقيق التصحيح والتفاعل مع النقد الإسلامي. فالنقد عملية عقلية ضرورية لم يتنازل عنها الإسلام في أي وقت من الأوقات، ولكنه أدّاها داخل إطار من الاعتراف والتسامح والود مع أهل الأديان الأخرى وبدون إبداء الرغبة القسرية في تحويل الشعوب عن أديانها. فالتحوّل من المنظور الإسلامي عملية فكرية عقلية تقوم على اكتساب المعرفة الدينية، وتحليلها ونقدها، وقبولها أو رفضها عن اقتناع كامل. وفي كلتا الحالتين الحقوق محفوظة والحرية الدينية ممنوحة، والحماية الشرعية لأهل الأديان مكفولة.

إن كثيرا من عمليات الإصلاح الديني والتصحيح التي أجرتها الأديان في فكرها حدثت بتأثير إسلامي ومن خلال تفاعل مع النقد الأسلامي. ففي مجال الهيمنة القرآنية على الكتب السابقة تفاعل الغرب اليهودي والمسيحي مع النقد القرآني والإسلامي بشكل مباشر أو غير مباشر. ولدينا على ذلك دليلان من تاريخ الأديان. الدليل الأول تستمده من الموقف المسيحي البروتستانتي من استخدام الكتاب المقدس حيث تمسكت البروتستانتية بحرية تداول الكتاب المقدس، وتأمينه لجميع المؤمنين به، وكسر احتكار رجال الدين لتفسيره واستخدامه. كما نادت البروتستانية أيضا بضرورة العودة إلى الأصل فأصبحت الأناجيل تمثل حجر الزاوية في الفكر البروتستانتي الذي تسمّى أيضا بالفكر الإنجيلي إشارة إلى تمسكه بالأصول، وتجاوز كل التراث المسيحي الذي تطور بعد ذلك. وفي هذا المبدأ البروتستانتي تشابه مع الموقف الإسلامي من العودة إلى الأصول كما تمثل في تجاوز اليهودية والمسيحية والعودة إلى دين إبراهيم عليه السلام. وكما ظهر أيضا في جعل الكتاب متاحا لكل المسلمين ورفض أي احتكار للقرآن الكريم بواسطة فئة معينة، وإعطاء المسلم حرية العودة إلى القرآن الكريم وتفسيره وفهمه طالما توافرت في المسلم شروط التفسير. وقد أخذ المذهب البروتستانتي كذلك بالحد من سلطة الكهنوت المسيطر على صلة المؤمن بربه، وجعل هذه الصلة مباشرة بين الإنسان والإله. والدليل الثاني الذي نقدمه من تاريخ الأديان وعلى مستوى هيمنة القرآن الكريم التفاعل الذي تم من جانب علماء نقد الكتاب المقدس في الغرب الذين أخضعوا الكتاب المقدس بعهديه الجديد والقديم للنقد العلمي المصدري والنصي والديني والتاريخي والأدبي واللغوي بعد أن قبلوا نظرية التدخل الإنساني في وضع مادة الكتاب المقدس. ومن المعروف أن هذه نظرية قرآنية في الأصل رفضها علماء اليهود والنصارى على مر الزمان إلى أن أدى انتصار العقل في الغرب إلى الأخذ بها دون الاعتراف بمصدرها القرآني. ولا تعوزنا الأدلة على التأثر بالنقد القرآني والإسلامي للكتب المقدس. فعلماء نقد الكتاب المقدس معظمهم كانوا مستشرقين دارسين للقرآن الكريم وللإسلام وعارفين بالنقد القرآني والإسلامي، وفاهمين للنظرية القرآنية الخاصة بالتحريف والتبديل في الكتب المقدسة. ويأتي على رأس هؤلاء العلماء مؤسس مدرسة نقد الكتاب المقدس وهو المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤-١٩١٨م) المتخصص في الدراسات العربية والإسلامية (١٠).

أما الهيمنة على مستوى الإسلام فنرى أدلة حدوثها في تاريخ الأديان استجابة اليهودية والمسيحية للنقد الإسلامي، وإدخال الإصلاح على عقائدهما بدون الاعتراف بالتأثير الإسلامي وكأن الإصلاح استجابة لتطورات دينية ونقد من داخل اليهودية والمسيحية. والمراجع للحركات الإصلاحية في اليهودية والتي أدت إلى تطور فرق دينية يهودية مستقلة سيرى أن هذه الفرق تعكس رؤى إسلامية في اليهودية وتعبر عن استجابة ضمنية للنقد الإسلامي. وبدون الدخول في تفاصيل نشير إلى معتقدات وفكر فرق السامريين والقرائين على وجه الخصوص فهي تعكس تأثيرا إسلاميا مباشرا. ونشير أيضا إلى فكر الأرثوذكسية اليهودية التي تفاعلت مع الإسلام في العصر الوسيط، وأعاد علماؤها الكبار أمثال سعديا الفيومي وموسى بن ميمون بناء اليهودية وإعطائها نظاما دينيا واضحا، وتحديد أركان الإيمان مقلدين للوضع الديني في الإسلام، ومستفيدين من الخلفية الفكرية الإسلامية التي تبنوها وعاشوا في أحضانها.

والتأثير الإسلامي لم يتوقف عند حدود اليهودية والمسيحية بل امتد إلى ديانات شبه القارة الهندية وخاصة الهندوسية البراهمانية والبوذية. فقد تفاعلت هذه الأديان مع النقد الإسلامي لها وللنظام الديني الاجتماعي فيهما فظهرت فيهما حركات إصلاحية تعكس تأثرا بالنقد الإسلامي. ولا شك أن التواجد الإسلامي القوي في شبه القارة الهندية وفي كثير من بلدان الشرق الأقصى كان له دوره الكبير في عمليات التصحيح والإصلاح التي ظهرت في الهندوسية والبوذية وغيرهما من ديانات الشرق الأقصى. وبالنسبة للوضع الديني البدائي في القارة الإفريقية فللإسلام دور عظيم في القضاء على الوثنية البدائية، والارتقاء بالتفكير الديني في إفريقيا. وقد كانت استجابة الأفارقة للإسلام أكبر وأعظم فتحولت القارة في معظمها إلى قارة إسلامية تفاعلا مع الإسلام واستجابة لنقده الديني للوثنية والبدائية الدينية.

هذا التأثير الإسلامي في كل العالم تقريبا دليل على صحة مبدأ الهيمنة القرآنية على الكتب الدينية السابقة والهيمنة الإسلامية على الأديان الأخرى. وهو تأثير يتم بشكل طبيعي وبدون قسر لتعبيره المباشر عن الفطرة والعقلانية في التدين، والرغبة في الإصلاح بدون إجبار على التحول. وقد

أصلحت كثير من الأديان نفسها مع المحافظة على شخصيتها الدينية واستقلالها الديني وتحت الحماية الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه للمسلمين سيادة سياسية، وبدون هذه الحماية في أوقات ضعف المسلمين.

ب. و من أدلة الهيمنة الإسلامية في تاريخ الأديان وجود علاقة دينية عضوية للإسلام بالأديان الأخرى. فالعلاقة مع الإسلام ليست علاقة هامشية إنما هي علاقة احتواء وإحاطة ورقابة وتصحيح وحفظ وائتمان وكل المعاني الواردة في معنى الهيمنة. ولقد بنى الإسلام علاقته بالأديان على أساس ديني تشريعي. ولم يترك هذه العلاقة لتحددها وتشكلها الظروف التاريخية أو أهواء الملوك والحكام، بل أقامها على أساس من الدين والشريعة. ولذلك نتج عن هذه الهيمنة حماية للأديان ورعاية لها. وحفاظ على حقوق أهلها. وقد أولى الإسلام أهل الأديان التوحيدية عناية خاصة بصفتهم على نوع من التوحيد الذي اتخذه الإسلام كعامل لتحديد درجة القرابة مع الإسلام ولتحديد نوع العلاقة. وكلما اقتربنا من التوحيد كانت العلاقة أقوى. وقد شجع الإسلام الاتجاه التوحيدي في الأديان التي لم تقم على أساس من التوحيد أو حتى على أساس من الألوهية كما هو الحال في معظم ديانات الشرق الأقصى. ولا شك في أن بعض التفكير في الألوهية الذي ظهر مؤخرا في هذه الأديان بتأثير من الإسلام حيث أنها في الأصل ديانات طبيعة ووجود، وليست ديانات ألوهية. والتوحيد الذي يرونه هو وحدة للوجود يتم فيها فناء الإنسان في الروح الكونية، أو في الوجود كنوع من الاتحاد مع الوجود. ولم يتخذ الإسلام موقفا سلبيا من الأديان المخالفة. فقد تسامح معها، وتعامل مع شعوبها، وقدّم نفسه إليها بوسائل سلمية من خلال حثها على استخدام العقل وتغيير نفسها بنفسها.

وقد تمخضت هذه العلاقات العضوية بين الإسلام والأديان عن تأثير إسلامي في الأديان وعن فضل له في تطوير الأديان لنفسها ومساعدتها على اتخاذ مواقف دينية أكثر عقلانية. وقد قامت هذه العلاقة العضوية بين الإسلام والأديان على أساس قوي من قبول الصحيح ورفض غير الصحيح مما يعطي لهذه الأديان ثقة في اعتقاداتها الصحيحة، ويعطيها دافعا إلى تغيير غير الصحيح منها. وهي علاقة قائمة على أساس الوفاق لا الصراع. فالإسلام لا يعترف بالصراع الديني انطلاقا من مبدأ

وحدة الدين واعتبار التوحيد أساس أساس وأصل الدين وأن التعدد والشرك خروج على التوحيد يمكن تداركه بالعقل، وبالتصحيح المستمر الناتج عن النقد المستمر. ولذلك لم يتوقف الإسلام عن النقد، ولم تتوقف الأديان عن تصحيحها لنفسها سواء اعترفت بفضل الإسلام عليها أو أقرّت بالإصلاح نتيجة لنقد داخلي.

هذه العلاقة العضوية بين الإسلام والأديان الأخرى جعلت الإسلام أكثر إيجابية من أي دين آخر في علاقته بالأديان الآخرى. فهو أكثر اعترافا بالأديان الأخرى وتسامحا معها، وتصديقا للصحيح فيها، بل وقبولا للصحيح واعتباره من الإسلام. والإسلام أيضا أكثر الأديان نقدا وتصحيحا للأديان الأخرى، وحفاظا عليها ورقابة لها. وقد جمع الإسلام في بنيته إيجابيات الأديان الأخرى. ولكل ما هو صحيح فيها متخلصا من كل سلبياتها في عملية لا علاقة لها بالتلفيق إنما ترتبط بهذه الصفة العضوية للعلاقة بالأديان. وهي صفة تعود إلى الاعتقاد الإسلامي في وحدة الدين، وكون الإسلام دين البشرية منذ بدايتها، والإسلام يساعدها من خلال علاقته بها على العودة الى أصولها الأولى.

حواشي

1. محمد عبد اللطيف بن الخطيب : أوضح التفاسير. الطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة السابعة ص ٢٧٩ (بدون تاريخ)
2. الطبري: جامع البيان فيتفسير القرآن. الجزء السادس ص ١٧٢
3. المصدر السابق: ص ١٧٣
4. نفس المصدر :ص١٧٣
5. نفس المصدر: ص ١٧٣
6. الفخر الرازي: التفسير الكبير ج١٢ الطبعة الثالث. دار إحياء التلاث العربي بيروت، بدون تاريخ، ص٠١١
7. مختصر تفسير ابن كثير : اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم، بيروت الجزء الأول ١٩٨١م ص٥٢٤.
8. المصدر السابق: ص٥٢٤.
9. نفس المصدر ص٥٢٤.
10. د. صالح عضيمة: مصطلحات قرآنية. دار النصر بيروت ١٩٩٤ ص ٢١–٢٣.